الحرب البونيقية الثالثة أو حصار قرطاجة (149-146ق.م):

Tertium bellum Punicum or siege of Carthage (149-146 BC) :

أسامة بقار: جامعة محمد خيضر-بسكرة-.

محاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية تاريخ/الجزائر في 18-03-2020.

"لابد من تدمير قرطاجة Delenda est Carthago" –كاتو الكبير Cato Maior-.

1-توطئة عامة:

تمثل هذه الواقعة المرحلة الأخيرة من الصراع العسكري الطويل الذي نشب بين "البونيقيين" الذين تقودهم "قرطاجة" ضد الجمهورية الرومانية. في الواقع، إن كان المؤرخون اللاتينيون يُسمونها "بالحرب bellum" ويحملون القرطاجيون مسؤولية نشوبها، فإنها في واقع الأمر حملة عسكرية تمت فيها محاصرة مدينة "قرطاجة" لمدة ثلاث سنوات (149-146 ق.م) أين أظهر خلالها القرطاجيون شجاعة ومقاومة كبيرة. يتفق الباحثون على وصف هذه الحرب بالسخرية المهينة والصادمة، وأنها "حملة تطهير عرقي"، وطبعا نحن لن نتردد في القول أنها "أول هولوكست (إبادة جماعية) في تاريخ البشرية" باعتبار أنه راح ضحيتها على الأقل ما بين 150-250 ألف قرطاجي.

2-أوضاع قرطاجة بعد الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م):

بعد 10 سنوات فقط من نهاية الحرب أي سنة 191 ق.م أبدت "قرطاجة" رغبتها في دفع كل تعويضات الحرب المُقدرة بـ 10 آلاف تالنت، ما يظهر عودة الحيوية بسرعة للاقتصاد القرطاجي. هذا الطلب تم رفضه من قبل مجلس الشيوخ الذي ألح على الالتزام بأن تُدفع على مدار 50 سنة !. هذه الحيوية جاءت على الرغم من أن "قرطاجة" فقدت ممتلكاتها في الخارج إلا أنها استعادت ازدهارها بسرعة بفضل "عمل شاق" طبق، كما شهدت في هذه الفترة نموا ديمغرافيا معتبرا. هذا الغنى يُظهر لنا أن قوة "قرطاجة" لم تكن ترتكز فقط على التجارة وعلى أقاليمها بالخارج بل ينقل لنا كيف أن تثمين الإقليم الإفريقي الذي بحوزتها قادها للنهضة مجددا. ومن أمثلة ذلك نجد أنها سلمت كميات معتبرة من القمح والشعير إلى "روما"، كما حولت الحاضرة البونيقية أنظارها نحو الحوض الشرقي للمتوسط بغية إقامة علاقات تجارية مع شعوبه.

في المقابل يكشف لنا علم الآثار تطبيق الدولة لسياسيات تقشفية تظهر من خلال تناقص استعمال المعادن الثمينة في سّك العملات وفقر الأثاث الجنائزي، كما يكشف لنا أيضا عن ازدهار يظهره الجانب المعماري للمدينة حيث شيد خلال هذه المرحلة حي جديد يعرف باسم "حنبعل" على سفوح تلة "بيرصا" (Byrsa)، مع سكنات جماعية، مخازن تجارية وورشات. في هذه الفترة كذلك تمت تهيئة الميناء التجاري، والأهم أنه شيد الميناء العسكري حسب ما كشفته الحفريات البريطانية مؤخرا، وهو ما فسره البعض بالنوايا الحربية لقرطاجة، لكنه من وجهة نظرنا يعبر هذا عن سياسة تهدف لإعادة بناء الجيش والدولة القرطاجية لحماية نفسها من الأخطار المهددة.

على المستوى السياسي فقد شهدت "قرطاجة" بعد الحرب البونيقية الثانية صراعا سياسيا بين "حنبعل" وحزب المحافظين (الأوليغارشية)، وهو الأمر الذي ساهم في خلق تنافسية سياسية لخدمة الدولة. على إثر ذلك نجد أنه تم التوجه لإعادة تثمين أراضي "المزاق" (Byzacène)، كما لجأ القرطاجيون لحنبعل لمواجهة الظروف الصعبة لوطنهم حيث انتخبوه كشفظ سنة 196 ق.م الذي ندد بفساد الحكومة وراح يعمل على محاربته، محملا إياها مسؤولية هزيمة الحرب، ما جذب الكراهية القاتلة له. ففي عز اتخاذه لإجراءات تصب في صالح بناء الدولة ومحاولة إصلاح الدستور راح خصومه الأوليغارشيون يصورونه لروما بأنه يحضر لحرب جديدة ضدهم، ما اضطره للمغادرة نحو "حضرموت (سوسة)"، ومنها إلى الشرق أين توفي سنة في 183 ق.م. هذا النفي أزم أكثر من حالة انقسام الطبقة السياسية القرطاجية، فبرزت عصبتين: العصبة الديمقراطية الوريثة لتوجهات "آل برقة" المؤيدين للوقوف ضد "ماسينيسا" واعتداءاته، والعصبة الأرستقراطية الداعمة لفكرة السلام مجتمعة خلف "حنون الكبير". في غضون هذا النزاع بينهما انبثق فصيل ثالث داخل "قرطاجة" موالي لماسينيسا، والذين سرعان ما تم نفي أفراده بعد أن وصلت العصبة الديمقراطية للسلطة في "قرطاجة" قبيل بداية الحصار سنة 149 ق.م.

3-أسباب الحرب (Casus Belli):

3-1-الأسباب البعيدة (اعتداءات وتوسعات ماسينيسا على الأراضي القرطاجية):

لم تكن ما يُسمى بمعاهدة "زاما" للسلام 201 ق.م تحمل في ثناياها السلم لقرطاجة وللمنطقة بل إنها تضمنت مسبباب لتجدد الحرب، لكن هذه المرة كانت خيوط اللعبة بحوزة "روما" التي راحت تؤجج وتحرض الجار النوميدي وملكه "ماسينيسا" ضد عدوتها "قرطاجة". في معاهدة السلام هذه جردت "قرطاجة" من أراضيها خارج إفريقيا، مع احتفاظها بحق امتلاك حامية (جيش)، تم تحديد أسطولها الحربي بعشرة سفن (بند أصبح مشكوكا فيه بعد تأكيد الأبحاث الأثرية الأخيرة بأن الميناء العسكري شيد في فترة ما بين الحربين الثانية والثالثة) مع منعها من استخدام الفيلة الحربية، دفع تعويضات حرب قدرها 10 آلاف تالنت، وبلا شك كان أخطر بندين هما: لا يسمح لقرطاجة بإعلان الحرب إلا بترخيص من "روما" مع الإشارة إلى أنه من حق "ماسينيسا" استرجاع ممتلكات أجداده، وهذا في مقابل الاعتراف لقرطاجة بأراضيها المُحددة بما يعرف بالخندق البونيقي (fossa punica) أو الخنادق الفينيقية (fosses Phéniciennes)، وهي الحدود التي لا تزال مجهولة بالنسبة لنا، هذين البندين يظهران كيف عملت "روما" على حماية "ماسينيسا" من قرطاجة، وفي ذات الوقت تأليبه ضدها.

بعد الحرب الثانية المُسماة بالبونيقية كان مبعوثي روما يترددون على "قرطاجة" بشكل دوري لمراقبة مدى التزامها ببنود معاهدة "زاما" وتطبيقها، والأهم للتحكيم في النزاعات التي لا تحصى بين الجارتين "قرطاجة" و"نوميديا"، فروما أصبحت هي "الحكم" الذي يلجأ له الطرفين عند نشوب أي خلاف بينهما، وعند تدخلها كانت روما تنحاز لنوميديا في حالات وفي أحيان أخرى تتجاهل النداءات القرطاجية لوضع حد لاعتداءات "ماسينيسا" على أراضيها. لقد كان "ماسينيسا" يهاجم ويعتدي بشكل دائم على التراب القرطاجي مستندا على وقوف "روما" معه وتغاضيها عن أفعاله، والتي أفضت إلى توسيع

مجال المملكة النوميدية في مقابل تقلص مساحة الإقليم القرطاجي الذي لم يبق منه عشية الحصار سوى مساحة تتراوح ما بين 20-25 ألف كلم^2. في النقاط الآتية نلخص توسعات الملك النوميدي:

-قبل نفي "حنبعل" سنة 195 ق.م لم يتجرأ "ماسينيسا" على غزو الأراضي القرطاجية، فقبل سنة 193 ق.م (على الأقرب سنة 195 ق.م) طالب "ماسينيسا" من قرطاجة السماح لجيشه بالدخول لملاحقة زعيم نوميدي معارض يُدعى "أفثر" (Aphther) الذي فرّ إلى "أمبوريا" (موانئ السيرت الكبير)، لكن طلبه قوبل بالرفض، وهذا بلا شك لأن وجود "حنبعل" كشفظ كان رادعا. في المقابل هذا الطلب يؤكد أن "ماسينيسا" كان يعترف لقرطاجة بسلطتها على هذا الإقليم.

-بعد نفي "حنبعل" سنة 193 ق.م بدأ عصر اعتداءات "ماسينيسا" الذي هاجم إقليم "أمبوريا"، وفرض على مدنها الجزية، وهذا الاعتداء كان في واقع الأمر أول اختبار لرد الفعل القرطاجي ولمدى وقوف روما معه بعد أن رفع لها القرطاجيون شكاويهم التي تم التعامل معها بتجاهل.

-في 182 ق.م استولى "ماسينيسا" على إقليم مجهول استرجعه "غايا" من القرطاجيون، ثم أعاده "سيفاقس" للقرطاجيين، ومن الوارد أنه يقعه داخل "الخندق البونيقي"، ولا نستبعد أن يكون إقليما ساحليا.

-في حوالي 174-172 ق.م وقع خلاف بين "قرطاجة" و"ماسينيسا" بشأن أقاليم أخرى، فرفع "القرطاجيون" شكاوي تتضمن أن "ماسينيسا" انتزع منهم في هتين السنتين سبعين ما بين مدينة وقرية، وهنا نجد أن "روما" وقفت مع "ماسينيسا" بوضوح ودعت "قرطاجة" بالعودة إلى معاهدة "زاما" 201 ق.م !.

-في 162 ق.م استولى "ماسينيسا" على مدن أمبوريا بشكل نهائي، فأصبحت بذلك "لبدة الكبرى" (Lepcis Magna) أحد أبرز المدن البونيقية ببلاد المغرب تحت هيمنة الملك النوميدي الذي تحصل على تأييد صريح من مجلس الشيوخ الروماني في هذه الخطوة.

-في 153 ق.م استولى "ماسينيسا" على السهول الكبرى وعلى إقليم "توسكا"، فالأولى تمتد على طول المجرى الأوسط لوادي مجردة، أما "توسكا" فهو إقليم غير معروف يضم 50 مدينة صغيرة يُرجح أنه قد يكون "دوقة" وضواحيها أو ربما "طبرقة" ونواحيها، وعلى الأقرب نواحي "مكثر".

إن الصمت الروماني كان في واقع الأمر ليس نابعا من دعم لحليفها بل كانت تستغل طموح "ماسينيسا" في عملية إضعاف "قرطاجة" تحت وقع "الضربات العنيفة"، أي أن "ماسينيسا" دون أن يتفطن كان ينفذ "**حرب بالوكالة**" ضد جارته لصالح روما، وهو ما اكتشفه في أواخر حياته وعشية الحصار الروماني للمدينة البونيقية. خلال كل هذه الاعتداءات والتوسعات لم يكن أمام "قرطاجة" سوى الاحتجاج والشكوى "لروما" التي كانت في كل مرة ترسل مبعوثين لا يتخذون أي قرارات مع السعي للإبقاء على "الوضع الراهن statu quo" الذي من شأنه دفع "ماسينيسا" لمزيد من الانتهاكات.

3-2-قرطاجة تحت وقع تحريضات "كاتو الكبير" بالتدمير والإبادة:

إن خشية الطبقة السياسية من عودة قرطاجة لقوتها الاقتصادية ومن الصدام العسكري معها مجددا دفع بعض رجالاتها للدعوة إلى حرب استباقية ضد المدينة يتم فيها مسحها من الخريطة عبر التدمير والإفناء. على رأس هؤلاء نجد السياسي البارز والمؤثر "كاتو الكبير" المعروف كذلك بكاتو الرقيب (Caton le Censeur). قامت هذه الشخصية بزيارة إلى قرطاجة في 153-152 ق.م ضمن بعثة من المفترض أنها قدمت للشفاعة بين "قرطاجة" و"ماسينيسا" أين لاحظ ما أقلقه؛ تجدد الثراء والقوة القرطاجية رغم فقدانها لإمبراطوريتها، وعلى الرغم من أن اقتصاد الدولة كان قائما على الزراعة، التجارة ومعها الصناعة الحرفية اللتين ازدهرتا في هذه الفترة، ورغم أيضا ضربات القوية للملك النوميدي الذي انتزع منها أهم موانئها (موانئ السيرت الصغير والكبير) وأجود أراضيها (السهول الكبرى)، كما لاحظ نموا ديغمرافيا أكبر للمجتمع على الطريقة الهلنستية. عند عودته لروما رفع هذه الملاحظات إلى مجلس الشيوخ ومعها حبات "تين" جميلة قائلا أنه جلبها معه من إفريقيا، مشيرا إلى أن المدينة التي تنتجها لا تبعد سوى بثلاثة أيام إبحار عن مدينة "روما" (Urbs)، هذه المناورة الماهرة الذي انخدع بها بعض السيناتوريين السذج تفطن لنا بقية أعضاء مجلس الشيوخ باعتبار أن السفر بين "قرطاجة" و"روما" يستغرق على الأقل ستة أيام أو أربعة أيام في حال كانت الرياح المواتية، وأن التين المذكور يعود إلى ملكية "كاتو" في إيطاليا. على أنهم فهموا رسالته: العدو الذي يهددنا بجوارنا وقريب منا، هو يزدهر وينمو من جديد، وبالتالي على الرومان الاستعداد لحرب جديدة ضده. ثم راح "كاتو" يستخدم الفكرة المهيمنة والمتكررة في الجملة الشهيرة "**لابد أن تُدمر قرطاجة**"، لقد كانت هذه العبارة دعوة صريحة لإبادة القرطاجيين وإنهاء وجودهم من على سطح الأرض، والتي يمكن وصفها بأول تحريض في التاريخ على التطهير العرقي.

ما بين 153 ق.م إلى غاية وفاته سنة 149 ق.م كان "كاتو" يُنهي كل خطاباته داخل مجلس الشيوخ بهذه الجملة الشهيرة، وبغية تشجيع أنصاره وحتى مخالفيه راح يُذكرهم بالفظائع التي ارتكبها جيش "حنبعل برقا" في إيطاليا خلال الحرب البونيقية الثانية، وهي الحرب التي شارك فيها "كاتو". لقد كان "كاتو" بخطاباته هذه يلعب على وتر "الآثار الجيو-ستراتيجية والنفسية" لعودة الصدام مع "قرطاجة" وضرورة التحرك في حرب استباقية يتم فيها التخلص من العدو نهائيا. بهذا فإن النهاية المأساوية للمدينة البونيقية هو مرتبط بهذه الدعوات التحريضية لكاتو، والتي بقدر ما فسرت بالمخاوف السياسية والاقتصادية فإن البعض اعتبرها تندرج ضمن محاربة "الهّلينة" (hellénisme)-الحيوية الديمقراطية والسياسية، حركية علمية نراها في التأليف العلمي، التاريخي والفلسفي شهدتها قرطاجة في هذه الفترة-التي توغلت بعمق إلى المدينة البونيقية، والتي أصبحت تهدد القيم الأخلاقية للرومان. هذه التحريضات مكنت في نهاية المطاف من جعل غالبية أعضاء مجلس الشيوخ مؤيدين لمقترح "كاتو"، في حين دعاة النهج السلمي فقد كانوا قليلين وغير مسموع لهم يقودهم "سكيبيو ناسيقا" (Scipion Nasica).

3-3-السبب المباشر للحرب-الحصار- (حادثة 150 ق.م):

كان استيلاء "ماسينيسا" على منطقة السهول الكبرى وإقليم توسكا سنة 153 ق.م بمثابة "العدوان النهائي" الذي لا يُمكن للقرطاجيين تجاوزه والسكوت عنه، لذلك كانوا يأملون في أن يكون "التحكيم" الروماني منصفا، وهو ما لم يحدث، فلم يبق أمامهم سوى الرد بالحرب لحماية أراضيهم من اعتداءات "ماسينيسا" المتكررة. بدأت الحادثة سنة 150 ق.م عندما تمكن "ماسينيسا" من إنشاء "عصبة" سياسية داعمة له داخل "قرطاجة"، والتي بمجرد وصول حزب الديمقراطيين للسلطة في "قرطاجة" تم إقرار إبعادهم عن المدينة واعتبارهم خونة، فلجأت هذه الجماعة لماسينيسا الذي أرسل ابنيه "ميكيبسا" و"غولوسا" إلى "قرطاجة" للاحتجاج وطلب إعادتهم، وهو ما تم رفضه. في طريق عودة الأخوين تعرضت القوة المرافقة للأميرين النوميديين لهجوم قرر على إثره "ماسينيسا" غزو الأراضي القرطاجية وراح يحاصر مدينة (أو بالأحرى مكان محصن) مجهولة اسمها "أوروسكوب" (Oroscope)، ردت "قرطاجة" بإرسال جيش قوامه 25 ألف-50 ألف جندي (نعتقد أنها أرقام مبالغ فيها للغاية ولا تتجاوز 10 آلاف جندي) بقيادة "حصدربعل بويتارك=أزربعل Hasdrubal le) (Boétharque"، وهذا دون أن تطلب وتنظر إذنا وترخيصا من "روما" باعتبار أنها تدافع عن أراضيها وأن الصمت والانحياز الروماني أصبح مكشوفا. في هذه المعركة التي دامت يوما كاملا هزم الجيش القرطاجي وأجبرت قرطاجة على دفع تعويضات (05 آلاف تالنت). بمجرد انتهاء المعركة تدخلت "روما" متهمة "قرطاجة" بالإخلال بمعاهدة "زاما" (بند لا تعلن الحرب إلا بإذن روما)، واستغلت هذا كذريعة لإعلان الحرب ضد "قرطاجة". سارعت "أوتيكا" المدينة البونيقية المنافسة لقرطاجة إلى التحالف مع "روما" لأسباب اقتصادية، وهو الدعم الذي عزز الموقف الروماني في الاعتداء، ثم راحت "روما" تجهز بسرعة "جيشها" المشكل من 80 ألف جندي الذي تحرك إلى صقلية، ومنها صوب "إفريقيا".

3-4-الأسباب العميقة للحرب:

فقداننا مؤلف المؤرخ "بوليبيوس" المشارك في تدمير "قرطاجة" وخادم "سكيبو إيمليانوس" مُدمر المدينة حرمنا من فهم دواعي الحرب من وجهة نظره، وهو الذي لم يتورع في اتهام قرطاجة بمسؤوليتها في الحربين الأولى والثانية، ولا نعرف إن كتب "بوليبيوس" حولها فعلا أم أنه تجاهل الموضوع. لقد مثلت مسألة أسباب هذه الحرب مادة دسمة لنقاشات مستفيضة وخلافية بين المؤرخين من الصعوب الإلمام بها، لهذا سنحاول عرض أشهر الآراء ومن ثمة الوصول لوجهة نظرنا حول المسألة:

-حسب المؤرخ "لانصال" (Serge Lancel) فإن الأمر مرده أهمية وخطورة تجديد الحيوية الاقتصادية للمدينة في نصف-القرن الأخير من حياتها، هذا التعافي والصحة الاقتصادية نُظر لها كعنصر تهديد لمجتمع رجال الأعمال في شبه الجزيرة الإيطالية، وبالتالي فإن مخاطر تهديد مصالح "روما" الاقتصادية كانت الدافع الرئيسي.

-من جهته "كلود نيكولي" (Claude Nicolet) ففسر الأمر بأنه ناتج عن مخاوف رومانية من الاضطرار لمواجهة القرطاجيين مرة أخرى بعد أن برزت تهديداتها العسكرية بشكل فعلي (التحرك ضد ماسينيسا في 150 ق.م)، فالحيوية المتجددة للاقتصاد القرطاجي ومعه إعادة بناء الجيش أصبح ينظر له بمثابة خطر يستدعي التحرك.

-المؤرخ العسكري "يان لوبوهيك" (Yann le Bohec) نظر للمسألة من عدة جوانب: تقدم قضية مسؤولية الصراع عديد الخصائص المميزة، والتي تحمل دوافع قوية لروما لشن الحرب، فنجد هذا الباحث يحاول استبعاد التفسيرات المؤسسة على "التوجهات الإمبريالية" بحجة غياب استغلال الأراضي القرطاجية بعد الحرب، لكن علينا ألا ننظر للإمبريالية من ناحية الاستيطان فقط بل من ناحية السعي لاحتكار الهيمنة على الحركة والتجارة في البحر المتوسط، كما نجده يستبعد أطروحة أنها "جريمة بلا سبب crime gratuit". على ضوء ذلك يقدم جملة من الدوافع: الدافع النفسي الناتج عن الخوف من هذا العدو الوراثي، تجدد الحيوية الاقتصادية لها مكانتها، والتي حاول "كاتو" تغطيتها بالعامل الاستراتيجي (المخططات الأمنية الوقائية)، ومنه لابد ألا نغفل الحجتين العسكرية والاستراتيجية، وفي الأخير هنالك مخاوف وشكوك تمثل خطرا على المصالح الرومانية مرتبطة بخلافة "ماسينيسا"، فإن كان هذا الأخير قد تبنى خيار عداء "قرطاجة" وشن حربا بالوكالة ضدها لصالح "روما"، فإن أبناءه قد تكون لهم خيارات أخرى تعاكس توجهات والدهم.

-الباحث التونسي "الهادي سليم" يرى أن هذه الحرب تعبر عن الإرادة الرومانية لإيقاف تقدمات وتوسعات "ماسينيسا" الذي شكل مملكة قوية في بلاد المغرب، والتي أصبحت حسب رأيه أكثر تهديدا من "قرطاجة" التي تناقصت قواها. في هذا الصدد يتساءل "غابريال كامبس" إن كان فعلا "ماسينيسا" ينوي الاستيلاء على إقليم قرطاجة وعلى المدينة "ذاتها"؟، هذه الفرضية التي يؤيدها البعض هي مشكوك فيه من وجهة نظره بالعودة إلى عامل الوقت، فخلال فترة ما بين 201-150 ق.م (51 سنة) صحيح أن "ماسينيسا" غصب من "قرطاجة" أقاليم هامة: إقليم أمبوريا الممتد من "طينة=ثيناي" (Thenae)-قرب صفاقس-إلى "لبدة"، السهول الكبرى، إلا أنه لم يسرع من وتيرة عملياته للوصول إلى العاصمة "قرطاجة"، ما لا يعبر عن طموح لبسط سلطة على عاصمة البونيقيين، ليختم "كامبس" رؤيته باستنتاج مفاده أن هذا "**المحارب العجوز وبوعيه البربري يعرف جيدا أنه لن ينجح أبدا في الاستيلاء على هذه المدينة الكبيرة بقوة السلاح، حتى وإن كانت روما مو فقة**". في الواقع إننا نعتبر أن تصوير "ماسينيسا" كمثير لمخاوف روما هي فكرة "طوباوية"، فماسينيسا كان يتوسع تحت تأييد "روما" وحمايتها، كما أن أبناءه لم يظهروا بعد وفاته أي مؤشرات لمعارضتهم للوجود الروماني، بل كانوا مشاركين في تدمير المدينة، ما يعني أن كان هنالك تشارك في الهدف بين "روما" وأنباء "ماسينيسا" في مشروع القضاء على "قرطاجة" المهددة لنوميديا قبل "روما".

هذه التفسيرات أضيفت لها رؤى أخرى تتمحور حول نظرة الرومان للقرطاجيين كشعب "غدار" (الايمان البونيقي السيء Punica fides)، الانحطاط المفترض للدستور القرطاجي نتيجة تحول المدينة "لحكومة الدهماء=الغوغاء" (ochlocratie)، ما شكل "مبررا أخلاقيا للغزو"، أيضا التعطش للغنيمة بعد الانتصار والسيطرة على هذه المدينة الغنية.

<u>التركيب:</u>

علينا ألا نغفل في البداية أن قرطاجة دفعت آخر قسط من تعويضات الحرب سنة 150 ق.م، وهو ما جعل "روما" تشعر بأنها فقدت الآلية التي تتدخل بها في "قرطاجة" وتفتش مرافقها، ومنه فروما لم تعد تمتلك الذريعة التي تمارس بها رقابتها ما أصبح يشكل تهديدا لاستمرار صلاحية معاهدة "زاما"، نذهب لأبعد من ذلك ونعتقد أن تحرك "قرطاجة" سنة 150 ق.م

كان نابعا من قناعة مفادها أن المعاهدة فقدت صلاحيتها ومشروعيتها مع دفع آخر قسط من تعويضات الحرب. من جهة أخرى نعتبر أن سبب الحرب مرتبط بالدرجة الأولى من المخاوف الرومانية من تجدد المنافسة التجارية للقرطاجيين، ففي الواقع لم تكن معاهدة "زاما" تمنع القرطاجيين من امتلاك أسطول تجاري ولا حتى حربي، وهو ما نؤكده بالعدد المعتبر للسفن التي كانت بحوزة "قرطاجة" عشية الحصار، وما كشفته لنا التنقيبات الأثرية البريطانية المنفذة سنة 1993 بأن الميناء العسكري القرطاجي شيد ما بين 201-150 ق.م. هذه المخاوف عبر عنها القنصلين الرومانيين المحاصرين لقرطاجة سنة 149 ق.م بوضوح حينما أخبر القنصلين "مانيوس مانيليوس" (Manius Manilius) و"ل. مارقيوس قينسُرينوس" (L. Marcius Censorinus) البلاغ أو القرار النهائي (ultimatum) لروما حول مصير مدينتهم قائلين: "**اتركوا قرطاجة، وأجلوا سكانها عنها إلى مكان ترونه مناسبا بشرط أن يبعد عن البحر ثمانين غلوة (15 كلم) لأننا قررنا تدمير "قرطاجة .إن رؤية البحر سوف تذكركم دوما بمجدكم الغابر مما سيقودكم إلى ارتكاب الحماقات القديمة مثل غزو صقلية، سردينيا واسبانيا. بالنسبة للسكان من الممكن أن تقدم لهم الزراعة قدرا كبيرا من الطمأنينة مما كانت تقدمه لهم التجارة البحرية، وبما أن التفوق البحري سيكون من نصيب "روما" فقط، فمن الأفضل للقرطاجيين أن يعملوا بسلام في الزراعة داخل الأراضي الإفريقية**": Appien : Libyca, 81. هذه المقولة تعبر عن مخاوف روما من تجدد المنافسة البحرية للقرطاجيين البارعين في الملاحة. لهذا فإن الأمر يتعلق بما يُمكن أن نسميه "عقيدة إمبريالية قصدية"، وسعي لأحادية قطبية (unipolarité) متوسطية تكون فيها "روما" سيدة المتوسط، فقرطاجة مثلت لروما منذ قرابة قرن "معضلة أمنية" لن تنتهي إلا بإنهاء المدينة من الوجود. بهذا فالحرب تأخذ طابع اقتصادي، سياسي وأمني، وجاءت على شكل "حرب وقائية استباقية" أراد منها الرومان تجنب تعاظم القوة القرطاجية من جديد.

4-مراحل الحرب:

4-1-حملة القنصلين "مانيليوس" و"قينسُرينوس" (149-148 ق.م):

بعد إعلان "روما" الحرب على "قرطاجة" بحجة إخلالها بأحد بنود معاهدة "زاما" سارعت السلطات القرطاجية لتجنب الحرب أين أرسلت بعثة وقفت أمام مجلس الشيوخ سنة 149 ق.م على أنه لم يُمنح لها حق التعبير حيث عرضت "استسلام" (deditio) مدينتهم، فتم إعلام المبعوثين القرطاجيين بالمطالب الجديدة للرومان: تسليم 300 رهينة من أبناء أعيان المدينة في صقلية خلال مدة لا تتجاوز 30 يوم، تسليم الأسطول والأسلحة: 200 ألف سلاح، 2000 منجنيق تم إرسالهم إلى "أوتيكا" في ربيع 149 ق.م. بعد أن أذعن القرطاجيون لهذه المطالب راح القنصلين الرومانيين يطالبان بالشرط النهائي: لابد من مغادرة المدينة لأن الرومان قرروا تدميرها، والاستقرار في مكان يبعد عن البحر بمقدار 15 كلم على الأقل: إذن القرطاجيون مطالبون بإخلاء منازلهم ومعابدهم، السماح في مدينتهم وصلتهم بالبحر ليكملوا بقية حياتهم كمزارعين. هذه المطالب اعتبرها القرطاجيون غير مقبولة لأن التخلي عن الطابع البحري للمدينة معناه الحكم عليها بالموت، وبلا شك فإن عقد "الاستسلام" الممنوح من "قرطاجة" يمنح لروما الحق في التصرف بمصيرها باعتباره "تسليم للمدينة" بلا شروط، وهو ما فسره المؤرخون بالجهل البونيقي بالقانون الروماني.

بعد عودة المبعوثين القرطاجيين وإعلانهم للمطالب الرومانية اندلعت أحداث شغب بالمدينة تم فيها ذبح أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي المؤيدين لطلبات روما رفقة الايطاليين الحاضرين، وهو ما يعد بمثابة اندلاع صريح للحرب اختار فيه القرطاجيون المقاومة عل الرضوخ. خيار برره "الهادي سليم" قائلا: "**لم يكن أمام القرطاجيين خيار سوى القتال، لأن مغادرة مدينتهم كان يعني إنكار ماضيهم وهويتهم**"، كما أن القبول بالتدمير حسب "لانصال" هو بمثابة "**زلزال ديني ومقدس مع اختفاء المعابد والمقابر**". شرع القرطاجيون في التجند للحرب، فأعلن مجلس الشيوخ حالة الحرب ومعه التعبئة الاقتصادية العامة، تم تحرير العبيد لتجنيدهم بالجيش وبدأت الورشات في تصنيع الأسلحة بكميات كبيرة مع مجهود واستعدادات حربية كبيرة لحماية أسوار المدينة. النساء القرطاجيات قدمن شعرهن لتحويله لحبال، تم بناء أسطول من عوارض المنازل، النساء منحن مجوهراتهن لسبكها، ثم استدعي "حصدربعل بويتارك" لقيادة الجيش، مع حصولها المدينة على سلع من المدن الوفية لها.

بعد محاولة الاقتحام الأولى للجيش الروماني الذي وصل عدده لحوالي 80 ألف جندي، 4000 فارس و50 سفينة خماسية (لم يعلم الرومان "ماسينيسا" بالنوايا الرومانية للحرب ما أثار استياءه أين رفض في البداية تقديم المساعدة المطلوبة من "روما"، لكنه عاد واقترح مساعدته التي رفضها الرومان). قرر القنصلين اللذين تصفهما الدراسات بالقائدين الفاقدين للكفاءة نصب معسكرين لحصار المدينة بحريا: الأول لسّد البرزخ ومواجهة التحصينات القرطاجية، والآخر على الساحل. في الواقع كانت المدينة مُحصنة بشكل جيد بأسوارها، كما أن موقعها الذي يجعلها شبه جزيرة يصعب مأمورية فرض الحصار: الجدار الذي يقطع البرزخ على طول 05 كلم هو حسب "أبيانوس" ثلاثي (triple)، وكل جزء بسمك يتجاوز 08 أمتار، له طابقين ويمتلك أبراج كل 60م، كما أن الدفاعات كانت مؤمنة بـ 300 فيل، 12 ألف حصان و72 ألف جندي، هذه التحصينات وصفها "لانصال": "خطوط دفاع ثلاثية، مع خندق وجدار صغير يسبق جدار كبيرا".

منذ صائفة 149 ق.م حاول "مانيليوس" الذي يقود القوات البرية مهاجمة النظام الدفاعي الثلاثي الذي يسد البرزخ عبر الصعود، في حين ركز القنصل "قينسُريوس" الذي يقود الأسطول محاولاته على أخذ "قرطاجة" من الخلف عبر الطريق البحري والإقامة على الشاطئ الحالي لبحيرة تونس عند سفح أسوار المدينة. مكنت هذه المحاولات من فتح نُقرة في النظام الدفاعي، لكن الرومان فشلوا في استغلالها لأنهم لم يستطيعوا الحفاظ عليها نتيجة المقاومة الكبيرة للقرطاجيين التي لم تكن متوقعة بعد "نزع السلاح الغادر" من القرطاجيين، وهو ما أجبر القنصل على نقل معسكره بجوار فم الموانئ على لسان رملي طبيعي يسمى الشريط الصخري (taenai) الذي شكل قاعدة انطلاق في محاولة الاقتحام. من جهة أخرى كان الجزء الكبير للجيش البونيقي يعسكر خارج "قرطاجة" بحوالي 30 كلم في مكان يدعى "نيفيريس" بهدف ضمان الدفاعات الخارجية تحت قيادة "بويتارك"، وهو الجيش الذي تمكن من مضايقة قوات العدو وإفشال اتصالاته مع عديد المدن البونيقية المتحالفة مع الرومان على غرار "حضرموت"، "ثابسوس" و"أكولا". أما داخل المدينة فإن الدفاع عنها أسند لشخص يحمل اسم "حصدربعل"، وهو حفيد "ماسينيسا". على ضوء هذا الانتشار حرص "مانيليوس" على تدمير نواة المقاومة البونيقية في "نيفيريس"، وهي المهمة التي أسندت لسكيبيو إيمليانوس التي سمحت بازدياد شعبيته وشهرته خصوصا بعد نجاحاته العديدة ضد "هامليكار فامياس" (Hamilcar Phaméas).

بعد هذه الاخفاقات قرر "مانيليوس" مهاجمة "بويتارك" المرابط في "نيفيريس"، بالقرب من "جبل الرصاص" غير آبه بنصائح "سكيبيو"، ما أدى لفشله واضطرار الجيش الروماني للانسحاب، ولولا "سكيبيو" لما تم انقاذ عديد الفرق المنتدبة بهذا الموقع، وهو النجاح الذي أدى لتكريمه "بتاج" من قبل قواته. في سنة 148 ق.م توفي "ماسينيسا"، ونظرا لكون "سكيبيو" مقربا منه فقد تمت دعوته لمساعدته في تعيين خلفاءه باعتبار أنه عينه كمنفذ لوصيته: الأبناء المنحدرين من المحظيات تم ابعادهم وانحصر الحكم في أبناءه الثلاث: "مكيبسا (مكوسن)"، "غولوسا" و"مستنبعل" الذيت اقتسموا السلطات فيما بينهم. بعد أن قسم "سكيبيو" السلطة بين أبناء "ماسينيسا" نجد "غولوسا" كمساعد للجيش الروماني، وهو ما تزامن مع بداية الانشقاقات داخل المعسكر البونيقي: بعد فشل محاولة أخرى "لمانيليوس" ضد البونيقيين في "نيفيريس" نجد "هاميلكار" يغير تحالفه ويختار الانضمام للمعسكر الروماني.

4-2-حملة القنصل "ل. قالبورنيوس بيزو" (L. Calpurnius Piso) 148-147 ق.م:

تم استبعاد القائدين السابقين وعين محلهما هذا القنصل في ربيع 148 ق.م الذي جلب معه مساعده "ل. هوستيليوس مانقينوس" (L. Hostilius Mancianus) حيث وجدا جيشا محبطا، لذلك حاولا تغيير الاستراتيجية عبر التركيز على عزل المُحاصرين بحلفائهم أي الهجوم على التأسيسات الخارجية لقرطاجة لتقويض إمداداتها الغذائية. على أن مدن "قليبية"، "نابل" و "بنزرت" (Hippagrata) ظلت وفية لقرطاجة على الرغم من الوعود الرومانية. في المقابل أفضى هذا التوجه إلى انشقاقات للنوميديين الذين التحق بعضهم بالمعسكر البونيقي، وراح "حصدربعل" يحاول إحداث تقارب مع "مكيبسا" و"مستنبعل" لإقناعهما بالوقوف مع "قرطاجة"، وهو الأمر الذي يبدو أنه فشل، كما وعدت "قرطاجة" المغامر والملك المقدوني "أندريسكوس" بمساعدته للحفاظ على ضغطه الحربي ضد "روما"، لكن هذه الأخيرة سحقته سنة 148 ق.م.

4-3-حملة "سكيبيو إيمليانوس" (Scipio Aemilianus Africanus) 147-146 ق.م:

تم انتخابه سنة 147 ق.م كقنصل (عمره 38 سنة) وإسناده قيادة العمليات الحربية حيث قدم إلى إفريقيا رفقة المؤرخ "بوليبيوس" المختص في تكتيك حصار المدن، وكذلك "هاميلكار". بوصوله سيبدأ عهد انتصار "روما" وزوال "قرطاجة". عمل في البداية على تصحيح الوضع الروماني الذي سببه "مانقينوس" الذي حاول النزول في ربيع 147 ق.م بالقرب من "قمرت"، أو "المرسى"، أو ربما "سيدي بوسعيد"، فتمت نجدته من قبل "سكيبيو"، وراحا يتعاونا للاستيلاء على المدينة. بعد أن أعاد "سكيبيو" الانضباط للجيش هاجم "ميغارا" (Mégara)، وهي ضاحية بقرطاجة في الربيع على الجانبين في وقت واحد، تم الهجوم في الركن الشمال-الغربي للتحصينات ورأس الجسر تم إنشاءه انطلاقا من برج ينتمي لأحد الخواص، وهو ما دفع بالقوات البونيقية للتراجع إلى "بيرصا"، مركز المدينة القديمة. تواصلت النجاحات الرومانية حيث في ذات الفصل سيطر الرومان على الجزء الأكبر من الضاحية، وهو ما رد عليه "بويتارك" بتعذيب وقتل الأسرى الرومان، وكذلك أعضاء مجلس الشيوخ المعادين له، بعد أن خلف "حصدربعل" المُغتال على قيادة جيش المدينة.

خلال صائفة 147 ق.م كل ضاحية "ميغارا" أصبحت تحت سلطة "سكيبيو" الذي راح يأمر بحفر خنادق، واحد منها على امتداد 4.5 كلم من البرزخ، وقام بتشييد بناء مستطيلي مزود بجدار وبرج عالي قبالة "قرطاجة". لقد خلق فقدان "ميغارا"

ندرة الطعام، ومن ثمة المجاعة، فالمدينة ليس بمقدورها التموين من الآن فصاعدا، لا برا ولا بحرا. بعده هذه الخطوة قرر "سكيبيو" صد (منع) الوصول إلى الميناء عن طريق إنشاء سد ترابي (digue)، وهذا لحرمان القرطاجيين من استغلال الميناء العسكري الذي تم بناءه قبل الحرب وبمقدوره استيعاب حوالي 170 سفينة، على أن القرطاجيون سارعوا إلى خلق مدخل آخر للميناء وبناء حوالي 120 سفينة شيدت من عوارض المنازل، لكن في الواقع كان من الصعوبة على القرطاجيين أن يخوضوا معارك بحرية لاستحالة تحقيق عنصر المفاجأة، وزاد عدم كفاءة الأميرالات القرطاجيون من تأزيم الموقف القرطاجي وفشل محاولات فك الحصار البحري. تمكن الرومان من الوصول إلى الميناء عبر السد الترابي، وما إن يُحدث الرومان نُقرة في الجدار إلا ويسارع القرطاجيون لسدها عبر هجوم مضاد سريع، بهذا لم يتبق أمام "سكيبيو" سوى أن يشغل مدخل الميناء خلال شتاء 147-146 ق.م مع العمل على تدمير المقاومة في "رأس الطيب". في الوقت ذاته هُزم جيش "نيفيريس" الذي يضم حلفاء "قرطاجة" من الليبيين والموريين بفضل مساعدات الملك النوميدي "غولوسا"، وهو ما أدى لفقدان "قرطاجة" لآخر مصادرها الإمدادية بالغذاء.

أمام هذه الوضعية اليائسة للمدينة المحاصرة حاول "بويتارك" التفاوض مع الرومان بواسطة من "غولوسا"، فعرض عليه الرومان انقاذ حياته رفقة 10 عائلات يختارها، وهو الاقتراح الذي رفضه البونيقي. بعد ثلاثة أسابيع من الحصار في بداية سنة 146 ق.م تم الاستيلاء على المدينة عبر خدعة حربية: التمركز (تكثيف التواجد) حول عمل يستهدف إحداث تصدعات في جدران المدينة، وفي الحين يُخدع حلفاء "قرطاجة" بهجوم آخر حاسم في موقع آخر. قبل اقتحام المدينة باشر "سكيبيو" إلى احتفال ديني قام فيه بعادة الاستحضار (evocatio) ونذر النفس=تقديم نذور (devotio) للآلهة المعبودة من قبل الخصم (القرطاجيين)، ونقصد هنا "بعل حمون" و"تانيت"، وهذا لكي تساعده وتغفر له، وهو ما يطلق بالتفسير عبر واسطة النماذج الرومانية (interpretatio romana). بدأ الاقتحام النهائي للمدينة في بدايات ربيع 146 ق.م عبر "الميناء المحفور" (cothon)-الميناء التجاري-، وبالتحديد في حوالي مارس-أفريل، وهو ما رد عليه القرطاجيون بإحراق مستودعات الميناء بالقرب من المعسكر الروماني بهدف إبطاء تقدم المهاجمين. مع ذلك، استولى "سكيبيو" على الميناء العسكري، ثم ساحة "أغورا" (Agora) أين يوجد معبد للإله "أبولو" الذي تم نهب تمثاله الذهبي، والذي أرسل لاحقا إلى مكان غير بعيد عن السيرك العظيم بروما، ثم راح الجنود الرومان يضرمون النيران في أحواض بناء السفن على الرصيف الشرقي للميناء التجاري عشية الاقتحام النهائي لتلة "بيرصا" التي لجأ إليها عشرات الآلاف من السكان.

قبل الوصول إلى تلة "بيرصا" نشبت ما يمكن أن نسميه "حرب شوارع" قام فيها الجنود الرومان باقتحام المنازل القرطاجية بيت ببيت، خلالها أظهر القرطاجيون برجالهم ونساءهم بسالة ومقاومة لا هوادة فيها داخل مبانيهم المكونة من ستة طوابق، والمحاذية للطريق المؤدي إلى القلعة. هذه المعركة دامت 10 أيام و10 ليالي، كان فيها الرومان يتناوبون على قتل وإحراق القرطاجيين ومدينتهم في مشاهد الرعب هذه وصفها لنا "أبيانوس" بالتفصيل. لم يتبق أمام القرطاجيون الناجين سوى اللجوء إلى معبد "أشمون" داخل القلعة، هنالك التمس "بويتارك" من "سكيبيو" أن يعفو عن البقية سرا، لكن زوجته ما إن سمعت بالخبر صعدت على شرفة المعبد وطلبت من "سكيبيو" أن يعاقب زوجها لخيانته، ثم راحت

تحضر لمحرقة كبيرة رمت في نيرانها نفسها وأطفالها، فكانت نهايتها شبيهة لنهاية جدتها "عليسة"المؤسسة للمدينة، فكانت بهذا نهاية هذه الحاضرة التي عمرت ما بين 814-146 ق.م.

5-ما الذي حدث بعد هذه الحادثة المأساوية:

-لقد تم إحراق المدينة وتدميرها بشكل كلي، وراح "سكيبيو" يأمر جنوده برش أراضيها بالملح (حادثة حولها نقاش كبير بين المؤرخين)، وبطمس ذاكرة "قرطاجة" عبر إحراق مكتبها التي أخذ منها المؤلفات الهامة التي سلم جزء منها إلى الملوك النوميد، ونقلت مؤلفات أخرى إلى روما أخرى أين تمت ترجمتها، ولا نستبعد أن الكثير من التراث العلمي القرطاجي تم السطو عليه ونسبه للرومان. وفق تقاليد الحرب فقد كوفئ الجنود بالسماح لهم بنهب أي شيء ثمين يصادفهم في طريقهم، ومن نجى من الموت (حوالي 55 ألف قرطاجي) تم بيعهم في أسواق النخاسة. يخبرنا "بوليبيوس" الذي كان شاهدا على التدمير والإبادة أنه أمام هذا مشهد الدمار شعر "سكيبيو" بالألم وخشي أن يكون مصير وطنه هكذا في يوم ما (وهو ما حدث سنة 476م لكن ليس بنفس الحجم والكارثة).

-انتهت صفحات التاريخ القرطاجي بأول "هولوكست=إبادة عرقية" في تاريخ البشرية، فكشف لنا الأبحاث الأثرية عن عمليات الإعدام الجماعي في هضبة "بيرصا": لقد كان هنالك عدد هائل من الجثث المكدسة على عجل. في هذا الحصار قتل ما بين 200-400 ألف قرطاجي، بل إن الجغرافي "سترابون" رقم 700 ألف قرطاجي. الأرقام وان تباينت فإن الأكيد أن العدد مهول. حولت الأراضي القرطاجية إلى أول مقاطعة رومانية بمساحة تصل لـ 25 ألف كلم^2، وعاصمتها "أوتيكا"، حيث ضبطت حدودها بالخندق الملكي (fossa regia) الذي يفصل أراضيها عن إقليم مملكة نوميديا. لكن هذه المدينة سيعود "أوكتافيوس" ويعيد بناءها في سنة 29 ق.م لتظهر "قرطاجة الرومانية" من جديد.

-لم تنته الحضارة البونيقية بانتهاء "قرطاجة"، فالبونيقيون بقوا موجودين في مدن وأرياف أخرى ببلاد المغرب، وأصبح يطلق على كتابتهم بالبونيقية الجديدة. ففي القرن الثاني ميلادي نجد أن الإمبراطور الروماني "سبتميوس سويروس" أصيل مدينة "لبدة" لم تكن عائلته تتكلم سوى البونيقية. بعد قرنين من تدمير "قرطاجة" بقيت الكتابة البونيقية توظف في النقوش. ديانة قرطاجة استمرت في الوجود: "بعل حمون" تواصلت عبادته باسم جديد هو "ساتورن"، في حين "تانيت" عبدت باسم جديد هي الأخرى هو "كايليستس" (Caelestis). الألقاب السياسية القرطاجية على غرار "الشفط" "والراب" (Rab) بقيت تستعمل في عديد المدن الإفريقية والنوميدية على الأقل لغاية عهد "ماركوس أوريليوس". حتى أن القديس أوغسطين في القرن الخامس ميلادي ينقل لنا إشارة هامة مفادها أنه إذا سألنا فلاحينا في ريف "هيبون" (عنابة) من أنتم: يقولون بالبونيقية نحن "كنعانيون". لهذا لم يتردد المؤرخ "بيكارد" في القول: "**لم تكن إفريقيا (بلاد المغرب) أبدا بونيقية إلا بعد الخراب التدميري لسنة 146 ق.م**". مقولة بقدر ما تحاول مغالطتنا في مقدار التأثير البونيقي على البربر في الدين، اللغة والزراعة الذي كان كبيرا ومحل اتفاق بين الباحثين، فإنها تنقل لنا أن الثقافة البونيقية حافظت على ديمومتها واستمراريتها إلى غاية فتوحات العرب-المسلمين.

المخطط العام لمدينة قرطاجة البونيقية حيث يظهر أهم مرافقها:

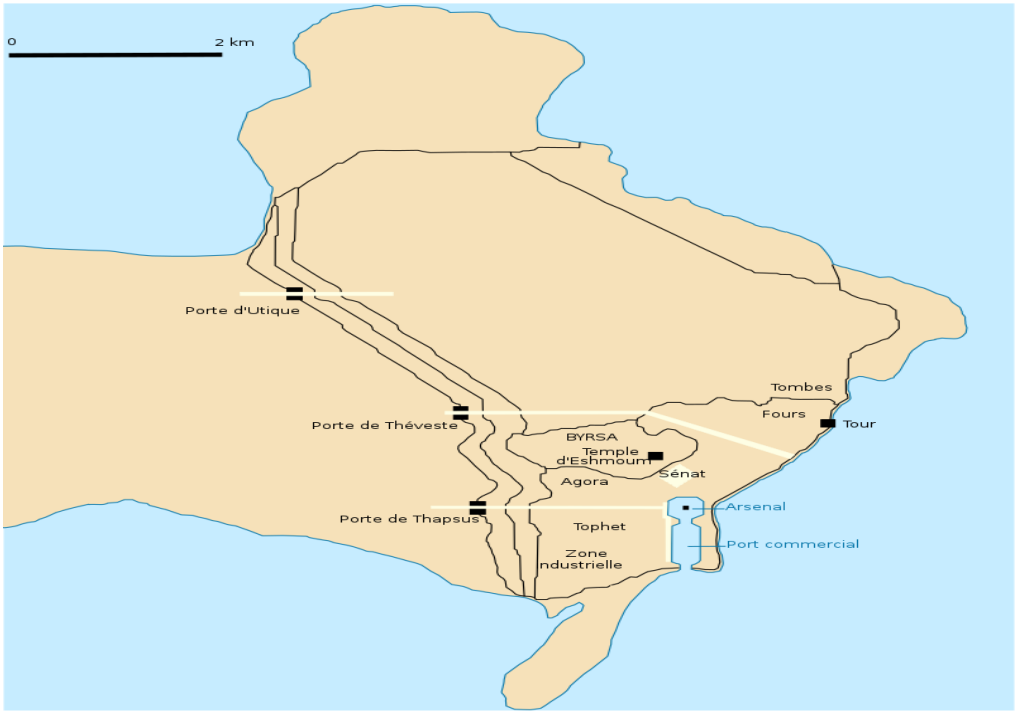

مشهد فني لمدينة "قرطاجة البونيقية" قبل حصارها سنة 146 ق.م وتدميرها على يد جيش "سكيبيو إيمليانوس".

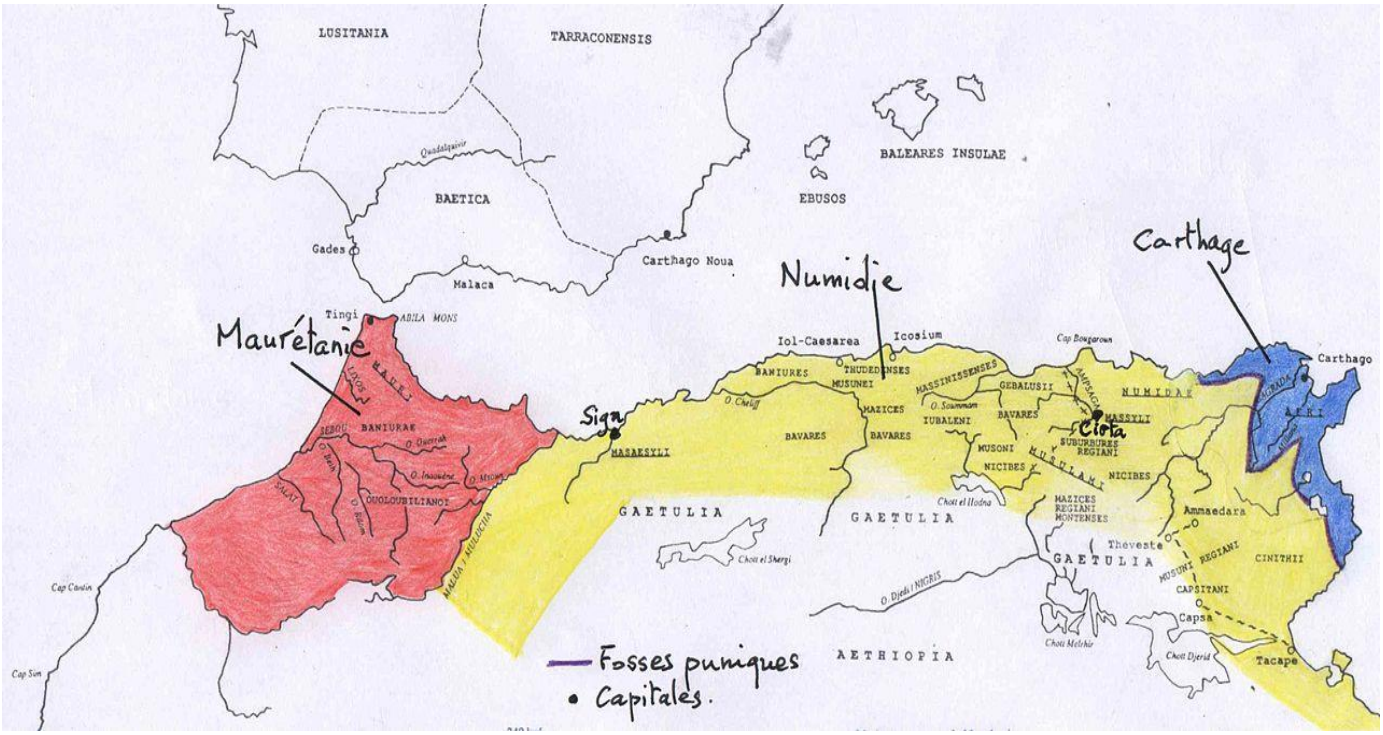

الخريطة السياسة لبلاد المغرب عشية حصار قرطاجة أين تظهر توسعات نوميديا وتقلص الإقليم القرطاجي.